الشباب

إزاء الأزمة العالمية

لسلامة موسى

هذه الحرب القائمة هي الانفجار الاخير لاختناق قديم ، أو هي التبلور لنزاع طويل مضى عليه سنوات عديدة . وقد كان احد الساسة المتعمقين يقول : اذا شئت ان تتعرّف الى الاسباب التي قادت الى حرب ما فانظر الى التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في السنوات العشر السابقة لها

وفي السنوات العشر السابقة نجد حرباً فكرية بين معسكرين من المبادىء والآراء والفلسفات . احدهما المعسكر الديمقراطي والآخر المعسكر الفاشي . كلٌّ منهما يناقض الآخر في العام والخاص بل في الجليل والحقير من نظام الدولة الى ملابس المرأة . وهذان المعسكران قد انتقلا في اسبانية في حرب دموية . ولكن هذه الحرب هي العَرَض ، هي النزف الدموي الظاهر لخرّاج عميق قد أحدث اوجاعاً خفية تتمشى في اعضاء الجسم الاجتماعي قبل ان يتورّم وينزف . وهذه الاوجاع تدلنا عليها السنوات العشر بل العشرون السابقة للحرب . فاننا نجد مجتمعاً متمدناً قد وصل الى مأزق في التاريخ . قد تعددت مشكلاته التي كانت تصرخ للحلول الحاسمة فلا تجد غير القهر او العلاج الخاطف الذي لا يغني . كما نجد ازمات متوالية تتسم جميعها تقريباً بوفرة الانتاج وقلة الاستهلاك . فهناك مصنع احذية يقفل ويطرد عماله لانه أنتج مقداراً كبيراً من الاحذية تكدست به الاسواق مع ان هؤلاء العمال الذين صنعوا هذه الاحذية ليس لهم ما ينتعلون به . وهنا حقول تمد ملايين الافدنة قد زرعت بالبن أو القمح . ولكن انخفاض الأثمان قد حمل الحكومات على حرق مقدار كبير من هذين المحصولين . بل ان الحكومة الاميركية قد أدت اعانات مالية سخية للزارعين في الولايات المتحدة لكي يحرثوا قطنهم ويتلفوه في التراب بدلاً من ان يجنوه ويبيعوه

في كل شيء في العالم تقريباً : انتاج كثير واستهلاك قليل . لان الذهن الذي اخترع وسائل الانتاج بالهندسة الميكانيكية او الكهربائية قد عجز عن اختراع وسائل الاستهلاك .

لان هذه تحتاج الى هندسة اخرى: هندسة اجتماعية لتنظيم المجتمع. هذا المجتمع الذي يجد وفرة في القمح في بعض انحائه مع قحط في انحاء اخرى، فلا يعطي القمح للجائعين بل يحرق. ذلك ان الناس كانوا أحراراً في اختراع الآلات المنتجة. ولم يكونوا قط احراراً في اختراع المجتمعات المستهلكة. لان لكل مجتمع تقاليده في العادات والانظمة والعقائد والثقافة. فالاعتراء على تغيير المجتمع جناية في حين ان اختراع الآلات حر مباح يكافأ عليه مخترعوه

***

فنحن الآن في هذا المأزق التاريخي: مجتمع جامد في استهلاكه وآلات حرة في انتاجها. وبذلك يجوز لنا ان نقول ان الناس قد أصبحوا آلات آلاتهم. فان الانتاج العصري يتحكم في الناس. فقد كان المخترعون يظنون ان الحديد والنار انما هما في خدمة الانسان وان كل اختراع جديد سوف يزيد الرفاهية. ولكن من يتأمل مثلاً الطائرات في الجو هذه الأيام جدير بأن يتساءل: هل الانسان هو الذي غزا الجو بالطائرات ام الجو هو الذي غزو الانسان بها؟

وعندما نسمع ان نصف الاسرة في مستشفيات الولايات المتحدة الاميركية وأكثر منها في بريطانيا أو المانيا انما هي للمرضى بالامراض النفسية أي لأولئك القلقين المهمومين الذين تزعزع كيانهم وفقدوا اتجاههم في الحياة يجدر بنا ان نتساءل: ما قيمة الثروات والأموال والانتاج الكبير والمصانع الضخمة اذا كانت تؤدي الى هذا الشقاء؟

وهنا لباب النزاع القائم الذي تبلور في النهاية في الحرب. وهذا النزاع او هذا المرض الاقتصادي قد استحدث اعراضاً جديدة تبدو لنا في القلق الاجتماعي بل القلق الروحي والاضطراب النفسي والتشوش السياسي

وهذا الكلام الكثير الذي سمعناه قبل الحرب مدى عشر سنوات او اكثر عن الفاشية والديمقراطية انما هو تشوش سياسي نشأ من هذا التفاوت العظيم بين الانتاج والاستهلاك. فان ملايين العمال في القارتين الاوربية والاميركية الذين عطلوا عن العمل عقب سنة ١٩٢٩ قد أوضح وجودهم عجز المجتمع عن مسايرة الرقي الآلي

وهنا ظهرت الفاشية. وبي في منزلة المريض قد يئس من العلاج الظاهري البطيء فعمد الى أساطير الطب يقرأ تذكرة داود الانطاكي ويتعالج بالوصفات البلدية فيها وهي وصفات قد تجمعت فيها ثقافة القراعنة الى كهانة البابليين الى غيرهم من الامم القديمة. وهكذا الشأن

في الفاشية التي ترجع الى الماضي في اتخاذ اساليب القرون الوسطى في احياء نظام نقابات الصناعات (وهو الذي الغي في مصر ايام اسماعيل باشا). وفي انكار حرية المرأة من حرية الفرد من أي الجنسين وانكار التفكير والاستقلال الشخصي ومطالبه بالانقياد للسلطة سواء أكانت هذه السلطة أم سياسية أم اجتماعية أم ثقافية

***

اما الديمقراطية التي كانت في الماضي مبادىء تعلم او تتبع وقد اوشكت في أيامنا ان تكون معيشة تمارس فهي النقيض للفاشية اذ هي تنادي باستقلال الفرد ذلك الاستقلال الروحي الذي يجعله يحس انه هو — وليس الدولة — في المقام الأول من الاهتمام الاجتماعي. وانه حر يفكر ويعمل كما يشاء بحيث لا يضر الناس وان اعظم تبعاته ينشأ من نظامه النفسي وليس من نظامه الحكومي. ولكن ما شأن الشباب هنا ؟

شأنه خطير جداً فان الشاب في الأمم الفاشية قد حل مشكلات العصر بالرجوع الى ما يرمز اليه بتذكرة داود الانطاكي. الى تقاليد في السياسة والاجتماع والاقتصاد كأنها أحافير. فهو يؤمن بالسلطة التي تملي على المرأة طول ثوبها وتأمرها بالتزام البيت كما يؤمن بالاستعمار والقيصرية والحرب. وهو يُزجر ويزجر عن قراءة هذا الكتاب او التفكير في ذلك النظام. وقد اطمأن الى هذه الحال التي يعانيها معهُ ويعانيها معهُ سائر العالم

ولكن الشاب في الأمم الديمقراطية يحس قلقاً لا يستقر معهُ. ذلك لأنهُ حر. والحرية تعني هنا تقلد تبعات ثقيلة وتحمل مسؤوليات جسيمة. فقد كان الشاب في الاجيال الماضية التي تحاول الفاشيات استعادة نظامها للعصر الحديث يخضع للسلطة — سلطة الحكومة في التفكير وسلطة الآباء في العادات والاخلاق وسلطة التقاليد. وكان راضياً بهذا الخضوع لانهُ كان يعيش في مجتمع مستقر

اما الآن فان الشاب يعيش في مجتمع قلق. ولكنهُ في وسط هذا القلق حر. وهذه الحرية تدفعهُ الى ان يستقل بفكره. ومن هنا يشعر كل شاب شريف ان الحرية قد حمّلتهُ مسؤوليات. ثم هو يجد نفسه محروماً من السلطات القديمة التي كان الشاب في الاجيال الماضية يستند اليها ويستقر على أقيستها في الاخلاق. والعقائد والاجتماع. ثم هو يجد ان الاقيسة الجديدة لما تتكون. فهو في حيرة

وهذه الحيرة قد خالها كثير من الناس انها انحلال اخلاقي. ولكن أحق بنا أن نصفها بانها فوضى اكثر مما هي انحلال. لأن الشاب العصري لا تنقصهُ الرجولة. ولكن تنقصهُ

الانفيسة . فهو مطالب بأن يعيش تحت رحمة الشرف ومعنى العادات ومغزى الوطنية كما عليه ان يختار في حرية تامة المعتقدات التي يريد ان يعتقد . ولو كان المجتمع مستقراً لوجد الشاب ان جميع هذه الاشياء ثابتة ولما احتاج الى التفكير في الموازنة بينها وبين غيرها

ولكن المجتمع الذي نعيش فيه حتى مع محاولته الجمود غير مستقر . اذ هو في تطوّر اي انه يتحرك هنا وهناك ويتغير ويتطور واحياناً يثور . حتى ان ما نلمسه فضيلة قد يستحيل أحياناً الى رذيلة . ولنضرب مثلاً : فقبل أشهر قرأت كتاباً لمجرم عظيم يدعى جان فالتن في الولايات المتحدة الاميركية حاول ان يقتل احد الناس فحكم عليه بالسجن بضع سنوات . ومثل هذا السجين في بلادنا نعامله بالعنف . فاذا أفرجنا عنه بعد استيفاء العقوبة منحناه شهادة سوابق تحرمه من العمل الكاسب سائر حياته تقريباً . وعندنا ان هذا هو الجزاء الحسن لاجرامه . ولكن جان فالتن وجد غير ذلك . فانهُ وهو في السجن انتسب الى احدى الجامعات التي علمته بالمراسلة وقبل ان يخرج من السجن كان قد حصل على شهادة في الصحافة فتحت له أبواب الرزق عند الافراج عنه بدلاً من أن تغلقها كما هو الواضح عندنا من شهادة السوابق . وقد وضع هذا المجرم السابق والصحفي الحاضر كتاباً دوّن فيه سيرته يدعى « الخروج من الظلام » Out of The Night

فالشاب المصري القارئ لهذا الكتاب ستتغير آراؤه في الجريمة ومعاملة المجرمين ومهمة الدولة . لانهُ سيخرج منهُ متردداً حائراً . ولكنهُ ليس في « انحلال » اخلاقي لهذا السبب بل هو في حيرة فقط . وهو لا بدَّ منتهٍ الى أن العقوبة في نفسها جريمة . وأن الدولة الحسنة هي الدولة الايجابية وليست الدولة السلبية . اي الدولة التي لا تقنع بكف الأذى عن الناس بحبس المجرم بل تعمد الى تعليمه حتى يخرج عضواً نافعاً في المجتمع

***

او لننظر في مثل آخر . ففي الاجيال الماضية كان المجتمع يكفل لكل انسان عملاً يرتزق منهُ ولم يكن يتعطل الا ذلك الكسول المتراخي . فكان التعطل تمرداً قبيحاً . ولكن المجتمع الحاضر بالتزامه الانظمة الاقتصادية العتيقة قد أوجد حوالي سنة ١٩٣٠ نحو ثلاثين مليون طول متعطل ليس واحد فيهم متهماً بالتراخي او الكسل . لان التعطل كان يرجع في العصور الماضية الى ضعف الكفاءة الشخصية . أما الآن فانه يرجع الى نظام اقتصادي كثير الانتاج قليل الاستهلاك والى وفرة المخترعات في الآلات الصناعية وقلة المخترعات الاجتماعية

والشاب المصري الذي يرفض السلطات القديمة التي كانت تملي عليه الاخلاق والعقائد انما

رفضها لأسباب قوية . وهو ليس في اعتلال خلاقي لهذا السبب ولكنه في حيرة وقتية يحاول ان يهتدي الى الآفاق الجديدة . وليس من الممكن ولا من الصحيح ان تقول له : عد الى ما كان عليه آباؤك . لان قصارى ما نحصل عليه من هذه العودة حياة زائفة متصنعة لن تدوم طويلاً . ولأنه ما دام لكل عصر مشكلات فيجب أيضاً أن تكون له حلوله وعلاجاته الخاصة . وما هي من التقاليد او العادات او الثقافة عامة لا يمكن احياؤه للحياة الطبية لأنه انما مات لأسباب قوية تطلبت موته . وتاريخ التطور في الحيوان يثبت ان العضو المنقرض لا يسترد . كالأسنان فقدتها الطيور أو استغنت عنها فلم تستردها بعد ذلك . وما زالت الاحافير من الطيور القديمة المنقرضة تثبت انه كان للطيور أسنان . ولكن بعد انقراضها لم نسمع عن طائر قد استردها في آلاف الطيور المنتشرة في اجواء العالم

***

وهكذا الشأن في التقاليد القديمة لا يمكن ان نلجأ اليها ونعيد اليها الحياة لكي نعالج بها مشكلة عصرية . وكل محاولة مما ينكرها التاريخ . فاننا نضحك الآن ونأسف معاً من اولئك الفراعنة الذين أحسوا في الدولة الأخيرة ان مجدهم قد ذهب سناؤه وان الامة في انحطاط وتدهور . فنهضوا يستعيدون هذا المجد وذكروا مصر ايام خوفو وخفرع فصاروا يدفنون موتاهم او مومياتهم عند اهرام الجيزة . . . وبالطبع كان هذا الدفن رمزاً للعودة الى تقاليد مصر قبل ٢٥٠٠ سنة او أكثر . وكانت النهضة لهذا السبب فاشلة

بل كذلك نذكر دقلديانوس قيصر رومة . فانه حين وجد الامة الرومانية في تقهقر وانتكاس والاخلاق العامة في تدهور فكر في احياء الدولة باعادة « رقيب الاخلاق » وكانت وظيفته قد نسخت منذ اكثر من قرن . وكان ظن دقلديانوس انه سوف يحيي التقاليد الميتة فتحيا الدولة الرومانية ولكن هذا السعي ذهب هباء . لان لكل عصر مشكلاته ويجب ان تكون له ايضاً حلوله الخاصة . ولا يمكن ان تحيا امة باحياء ماضيها وحسب ، ولكنها هي تحيا بالاستجابة السليمة لتحدي المستقبل فتعالج حضارتها العلمية الجديدة بثقافة علمية جديدة

ولم يعرف التاريخ الماضي او الحاضر مجتمعاً نهائياً هو غاية التطور وتاج الرقي . ومجتمعنا الحاضر هو طور من اطوار الحضارة . وما دمنا قادمين على تغير فاننا يجب ان نحرص على أن يكون هذا التغير مطابقاً لاعز الاماني وأشرف المثليات . وما دام الشباب هم ورثة المستقبل فان عليهم تقع تبعاته . وازاء هذه التبعات يجب ان يكون لهم حقوق في تكوين هذا المستقبل وتكييفه

وأول هذه التبعات ان يحس الشاب ويعي ان الحرية التي استفاضت في بلادنا انما هي المشروطية. وانه حين ينفض عن نفسه السلطات القديمة فانما يفعل ذلك لانه يحس انه امام نفسه مسؤوليات جديدة. فالضوابط الخارجية تدهورت او ضعفت ولكن الضوابط الداخلية قد تكونت او نمت وقويت. ومثل هذا الشاب يستطيع ان يقول انه قد أتم استقلاله الروحي وانه لا يعيش في غروب عصر زائل بل في بزوغ عصر قادم

كيف نعرف هذا الشاب ؟ ما إماراته ؟!

اول ما نعرفه به انه يعيش حياته بروح التدين، فلا يسلك في هذه الدنيا وشعاره « أنا وحدي » بل يجعل رقيه ورفاهيته مرتبطين برقي المجتمع ورفاهيته. وهو يحب ولا يكره لان الحب والود والكراهة عقيمة. الحب ايجابي بنائي. والكراهة سلبية تهدم وتدمر. فالشاب البار الذي يرجى منه في المستقبل مجتمع بار هو ذلك الذي يحب عائلته ويحب مجتمعه يعالج المشكلات بالروح الايجابي روح البناء والتعمير والمصالحة والتعاون

ولكن في وسط المشكلات المعقدة المحيطة بنا نحتاج الى النور — نور المعرفة. فالشاب الجديد الذي يأخذ على عاتقه تهيئة المستقبل هو ذلك الذي يأخذ نفسه بالدرس لكي يعرف الاصول والفصول في هذه المشكلات. يجب ان يدرس السياسة والفلسفة والاجتماع وسائر العلوم درس المحقق المستقل وان يعدها جميعاً علوماً تجريبية مثل الكيمياء والفيزياء

وأسوأ الشباب هو ذلك الذي لا يدرس ولا يبالي المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. هو « صفر افندي » الذي يقنع بقراءة القصص والمجلات التي يكتبها له أيضاً « صفر افندي ». وهؤلاء الاصفار هم كارثة العصر لا يشبعون من القيل والقال ولا يقدمون على دراسة جدية ولا يفكرون في تحمل التبعات البشرية كأنهم يعتقدون ان على غيرهم تحمل هذه التبعات. أما هم فلهم الحق في ان يقضوا حياتهم في تفاهة التفكير والتذاذ السخافة. أجل. ان مثل هؤلاء الشبان هم الذين يعممون الوهم الشائع بأننا في انحلال واننا في غروب حضارة زائلة ولسنا في بزوغ حضارة مشرقة

ولكننا نظلم الشباب اذا قلنا انهم جميعهم على هذه الوتيرة. فان الكثرة الساحقة في شباب جميع الامم تضطلع الآن بتبعات اجتماعية وتجهد في درس المشكلات الاقتصادية بروح التدين والرغبة في الخير. وهي تلوس القوى التي سوف تصوغ تاريخ الغد. وهذه الكثرة الساحقة تستطيع ان تميز بين التيارات المختلفة وان تسير مع ذلك التيار الذي يؤذن بعصر جديد. ولهذا العصر الجديد بشائر صغيرة في مقدارها ولكنها كبيرة في مغزاها نستطيع ان نذكر بعضها على سبيل الاشارة وليس على سبيل الاحاطة :

١ — فقد ذكرت ذلك المؤلف الصحفي عن ذلك الذي انتسب الى الجامعة وهو في السجن . فهنا نظر جديد للشاب الجديد . أي بدلاً من أن يتعفن المجرمون في السجون يجب ان يتعلموا . وبدلاً من أن يحملوا شهادة سوابق يجب ان يحملوا شهادة جامعية

٢ — ثم هناك المغزى الجديد من قيام الحكومات . فان الحكومة المتمدنة يجب ألا تكون سلبية تقتصر واجباتها على كف الأذى عن الشعب . بل يجب ان تكون ايجابية تعلم وتبني المنازل وتؤسس المؤسسات التي تزيد رفاهية الشعب الذهنية والجسمية

٣ — وهناك أنواع التأمين الاجتماعي الذي يكفل للمتعطلين أجوراً . وكذلك الشأن لمن بلغوا سن الستين وللمرضى وللحوامل وغير ذلك مما يجعل الفاجآت الاقتصادية غير فادحة . وليس في العالم أمة متمدنة تهمل المتعطلين فيها وتتركهم للجوع . والأمة التي ترضى هذه الحال هي أمة غير متمدنة حتى ولو كان لها تاريخ سابق في التمدن يبلغ عشرة آلاف سنة

٤ — هذه هي بعض التيارات الاجتماعية التي يستطيع الشاب الجديد ان يلمسها ويسير في مجراها ويساعد على توسعها لتعجيل العصر الجديد . ولكن هذه التيارات هي ثمرة المزاج الاجتماعي الجديد . هي ثمرة الديانة الاجتماعية التي تقتضي كلاً منا ان يكون انساناً انسانياً ينشد الخير لوطنه بل للعالم . وهذا المزاج هو الذي يجعلنا نرى في الانسان قبل كل شيء قيمة انسانية . فقيمة الانسان ليست في انه صانع او زارع او تاجر . وانما قيمته في انه انسان قبل كل شيء . وهو ليس انساناً اقتصادياً نقدر ثمنه بالجنيه والمليم

هذه القيمة الانسانية للانسان هي شعار العصر الجديد للأمم الديموقراطية التي تحاول ان تجعل الديمقراطية معيشة يمارسها الناس في بيوتهم ومجتمعهم وليست مقصورة على مبادىء تعلم للنصح او الارشاد

وهذه القيمة الانسانية للانسان هي التي جعلتنا ندرك ان الرجل المثقف ليس هو ذلك الذي يستنير بالثقافة الانجليزية او الثقافة العربية وانما هو الذي يحتوي الثقافة البشرية . هو الذي يدرس الاسلام اذا كان مسيحياً ويدرس البوذية اذا كان يهودياً . هو الذي يجد التاريخ سلسلة متصلة من الرقي البشري العام . وهذا التاريخ لن يكون عندئذ حافزاً للزهو السخيف وقت الحرب بل مهمازاً للرقي والسلام والتعاون . لن تكون تاريخ كل أمة على حدة بل تاريخ العالم أمة واحدة

وهذا النظر الجديد يقتضي التسليم بالاختراع الاجتماعي لتحسين المجتمع كما نسلم بالاختراع الكيمائي لتحسين المصنوعات . بل يقتضي أكثر من ذلك . وهو ان الاجتماع والفلسفة والصوفية والاخلاق يجب أن تكون علوماً تجريبية لا نسلم بصحة شيء فيها الا ما أثبتته التجربة